التطور الدلالي بين النظرية والتطبيق في السنة النبوية

حسن بن إبراهيم بن فاضل العجمي

مشرف تربوي بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان

وطالب بكلية معارف الوحي والعلوم الانسانية

الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا

Ha44an@hotmail.com

ملخص البحث

قد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تظل السنة النبوية الخالدة شغلاً شاغلاً للباحثين والدارسين جيلاً بعد جيل، وقد توجه لدراستها ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، ولذا عقدتُ العزمَ على أن أبحث في (التطور الدلالي بين النظرية والتطبيق في السنة النبوية)، ويقع الموضوع تحت المحور التاسع عشر من محاور المؤتمر: السنة والبحث العلمي، ويكشف عن دور السنة في الحفاظ على اللغة العربية وصيانتها من التحريف، واستفادة العربية من السنة من حيث الألفاظ والتراكيب والأساليب والبلاغة.

مشكلة البحث: أخذت الدراسات الحديثة على عاتقها بيان أسرار الكتاب والسنة وتحليل محتواهما اللغوي والدلالي، وفي هذا البحث لم أجد بحثاً متخصصاً يكشف عن طبيعة التطور الدلالي والأسلوبي في السنة النبوية ممنهجاً بأساليب البحث الحديثة المعاصرة، ليكشف النقاب عن أسرار استخدام السنة للمفردات والتراكيب اللغوية، والهدف العام من البحث: بيان أثر السنة في العربية من خلال تطور الدلالة فيها على مستوى الكلمات والتراكيب، وبيان تجليات السنة النبوية في هذا الشأن، أما منهج البحث: فيعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، مع مناقشة مظاهر التطور الدلالي في السنة النبوية وأثره في العربية، وخطة البحث تتكون البحث من: مدخل وفيه: بين يدي السنة النبوية واللغة العربية،

والمبحث الأول: السنة وعلاقتها باللغة العربية، وفيه مطالبان: المطلب الأول: فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم، المطلب الثاني: الأساليب النبوية وأثرها في العربية، والمبحث الثاني: التطور الدلالي وأثره على العربية، وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: التطور الدلالي في المفردات ونماذجه من السنة، والمطلب الثاني: التطور الدلالي في الأساليب النبوية ونماذجه من السنة، والمطلب الثالث: التطور البلاغي وأثره في التحليل الدلالي، والمبحث الثالث: الاستشهاد بالسنة نظرياً وتطبيقياً، وفيه مطالبان: المطلب الأول: الاختلاف في الاستشهاد بالحديث بين القدماء والمعاصرين، والمطلب الثاني: الاقتباس من الحديث النبوي، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج والاقتراحات والتوصيات من البحث، وقائمة المصادر والمراجع. ومن أهم نتائج البحث: حفلت لغة الحديث بمادة لغوية غزيرة ما تزال حجة للفصاحة وأنموذجاً في البلاغة، إنّ أحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام قد حوت صنوف التطور الدلالي في المفردات والأساليب وألون الفصاحة، وعبرت أدق تعبير عن سمو النفس التي خرجت منها، وبينت المنبع العذب الذي نهلت منه.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية ، التطور الدلالي، النظرية والتطبيق.

المدخل: بين يدي السنة النبوية واللغة العربية

السُّنة في الأصل مأخوذة من السَّنن، وهو الطَّريق والوجه والقصد (ابن منظور، ج13 ص226)، قال الأزهري: السنة الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السُّنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، والسُّنة: الطبيعة، وبه يفسر بعضهم قول الأعشى (الزبيدي ج13 ص344):

كَرِيماً شَمَائِلُهُ مِنْ بَنِي معَاوِيَةَ الأَكْرَمِيْنَ السُّنَنْ

والسنة في اصطلاح المحدِّثين: ما أُثِرَ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ، أو فِعْلٍ، أو تقريرٍ، أو صِفةٍ خَلْقِيَّةٍ، أو سِيرةٍ سواء كان قبل البعثة أو بعدها، وهذا التَّعريف للسُّنة ينطبق تماماً على الحديث، فهُما مترادفان، يُوضع أحدهما مكان الآخر. (السباعي، 2000، ص47)

وهذا يعني أنَّ المحدِّثين لم يُفرِّقوا بين السنة وبين الحديث عند تعريفهما، وهذا يتوافق مع منهج المحدِّثين في تناول السنة النبوية ودراستِها؛ إذ يُصبح أكثر استيعاباً وشمولاً للأحاديث النبوية دون تقطيع أو تجزيء لها حسب موضوعها؛ كما عند غيرهم من أصحاب الفنون الأخرى.

ولا شك في بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، يدلُّ على هذا قوله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى[النجم: 3،4])، حيث نفى الله تعالى عن نبيِّه الكريم صلى الله عليه وسلم اتِّباعَ الهوى، وأتبع ذلك ببيان أنَّ كلَّ ما ينطق به الرسول صلى الله عليه وسلم وكلَّ ما بلَّغه من أحكامٍ إنما بوحي من الله تعالى.

والمقصود بالتطور الدلالي: التغير الذي يصيب الألفاظ كونه من الظواهر الطبيعية التي تتطلبها حياة اللغة في مسيرتها للزمن؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية؛ فلابد من خضوعها للتطور والتغير من حال إلى حال، ويعد التغير في المعنى جانباً من جوانب التطور اللغوي العام، وللتطور الدلالي أسباب كثيرة منها ما هو معروف مألوف، وهو الحاجة إلى كلمة جديدة أو كلمة أقدر من غيرها للتعبير عن المقصود، ومنها ما هو مرتبط بأية حاجة عملية. (بشر، 1962، 155)

والمقصود بالنظرية، هو تلك القواعد التي وضعها العلماء في دراساتهم، والتطبيق: هو الجانب التطبيقي لهذه النظريات .

المبحث الأول: السنة وعلاقتها باللغة العربية

تعد اللغة العربية لغة سامية تمكنت من الحفاظ على بلاغتها ومعانيها ومفرداتها مما ساعد على خلودها، وقد كانت اللغة العربية هي اللغة الخاصة بكثير من القبائل والبلاد والأقوام مما أدي الى زيادة توغلها في الشام وفي شبه الجزيرة العربية، واكتسبت اللغة العربية أهميتها من كونها لغة القران الكريم والحديث الشريف؛ مما أدي الى زيادة أهميتها عند العرب وغير العرب على حدٍ سواء.

ولقد تربي النبي صلى الله عليه وسلم في البادية العربية فشرب من ينبوعها و لم تخالط لغته لغة أخرى، فضلاً عن أنه لا ينطق عن الهوى، وأن الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم بنو نهد بن زيد على النبي صلى الله عليه وسلم, فقالوا: أتيناك من غوري تهامة, وذكر خُطْبَتَهُمْ, وما أجابهم به النبي صلى الله عليه وسلم, قال: فقلنا: يا نبي الله, نحن بنو أب واحد, ونشأنا في بلد واحد, وإنك لتكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره, فقال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ"(السخاوي، ص74)، وفي رواية أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله لقد طفتُ فى العرب وسمعتُ فُصَحَاءَهم فما سمعتُ أفصحَ منك فمن أدَّبك قال... الحديث(المناوي، ج1 ص224) ، فكان صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك على حقه، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدَّهم لفظًا، وأبينهم عبارة، و لم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عُرف لقد كانوا نقلوه، وتحدثوا به، واستفاض فيهم (الرافعي، 1997 ص224)، وفي هذا المبحث نقف مع الحديث النبوي وأثره في اللغة العربية من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم

أرسل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغ عنه رسالته، وآتاه جوامع الكلم، فكان كلامه صلى الله عليه وسلم فصلاً ظاهرًا، ومنطقه بيِّنًا واضحًا، ما إن يقع على أذن مَنْ يجلس إليه شذرات منه، حتى

يحفظه بمجرد سماعه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يوجز المعاني الكثيرة في درر قليلة، ويختصر الكلام اختصاراً، في غير إخلال بالمعنى المراد، ولا تقصير في المقصود من وراء الكلام، ولربما يتلفظ المتكلم بكلمة لا يعقلها السامع من أول مرة؛ لذلك كان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلمة مراراً؛ ليعقلها السامع ويعيها، ورُوِيَ "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه" (الترمذي، ج5 ص600)، أما مظاهر فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم فكثيرة، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

الأولى: الفصاحة والطلاقة: تميز الرسول صلى الله عليه وسلم اللغوي بسمة الفصاحة، وهي التي جعلته شديد التميز حين يحادث الناس ويحاورهم؛ ففصاحة منطوق الرسول تشكلّ جزءاً من تحديه للكافرين، بحكم تأثره صلى الله عليه وسلم بالإعجاز القرآني في البلاغة والتأليف، وبالبيئة اللغوية المحيطة به، وهي عالية الذائقة، سريعة الفهم والتلقي، ولننظر إلى مستوى الشعر الجاهلي الذي كان نموذجاً في النظم الرفيع، فلما جاء القرآن بآياته أعجز العرب، ولما رأى المسلمون بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحته تعلقوا بمصاحبته، ورغبوا في الحوار معه في كل زمان ومكان، وقد كانت فصاحته صلى الله عليه وسلم وسيلة مضافة للإقناع بأيسر عبارة، وأرقى طرح، وأفصح أسلوب.

والفصاحة "صفة تجتمع لكلام، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام، أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه وفي موضوع كلامه"(العقاد ص30) وهذا يعني أن الفصاحة لا تقتصر على طريقة النطق العربي الفصيح، والرسول نموذج فيها بنطقه السامي للألفاظ العربية، فقد كان صلى الله عليه وسلم: "عربي اللسان، فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة وهذه هي فصاحة الكلام، وكان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، واتفقت الروايات

على تتريه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم".(العقاد ص30)

السمة الثانية: المنطق العذب السلس: كان صلى الله عليه وسلم ذا جاذبية خاصة لمستمعيه كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقاً، وهذا له تأثير كبير في جذب الآذان، وانفتاح القلوب، ورهافة العقول، لذا كان الناس يسعون إلى مصاحبته أطول الفترات، استئناساً بحديثه، وإفادةً من هديه، يقول الإمام ابن القيم: "إن كلامه يأخذ القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين، يعدّ العاد ليس بهذا مسرع، ولا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي"(ابن قيم الجَوزيَة 1987، ج1 ص66) ، وكما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام يبينه فصل، يحفظه من جلس إليه، وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليُعقَل عنه"(ابن قيم الجَوزيَة 1987، ج1 ص66) ، وهذا يعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتكلم بوضوح دون تقعر أو غموض في المعنى أو اللفظ، وكان صلى الله عليه وسلم "طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم... لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين، ومصلحتهم"(ابن قيم الجَوزيَة 1987، ج1 ص66)، ويكفينا من ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: "أُعْطِيْتُ جَوامِعَ الكَلامِ". (البخاري، 1422هـ ج9 ص36)

المطلب الثاني: الأساليب النبوية وأثرها في العربية

كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة يهتفون بروائع الخيال، الكلام صناعتهم؛ فكان لابد أن يكون الرسول الذي يرسل إليهم ليبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أروع من منطقهم، وخطابه أجل أثراً وأعظم قدراً من خطابهم؛ من هنا كان تأييد الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن ومعجزة البيان، فأوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، فكان فصيح المنطق، سمح البيان، سلس الأسلوب، قوي العبارة، رائع الحكمة، موفق اللفظ، مشرق المعنى، فبلاغة الحديث وإن كانت دون بلاغة القرآن الكريم فقد أثرت في اللغة والأدب تأثيراً بالغاً، فمن أهم آثار الأساليب النبوية في العربية أنه:

- عاون القرآن الكريم على انتشار اللغة العربية في الأمصار.
- فصل ما أجمله القرآن الكريم من أصول الدين وأحكامه، فاستعمل ألفاظاً جديدة لم تكن مستعملة في الجاهلية.
- أدخل الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً من التراكيب البيانية في اللغة العربية، وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسمية شهر(صفر الأول) شهر محرم.
- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة والقضاء على الوحشي والغريب والتعقيد في البيان.
- أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية يدرسونه ويحفظونه ويشرحونه وكان له أثره الكبير في التشريع.
- تأثر الخطباء والكتاب والشعراء بالحديث النبوي، واقتبسوا منه، وحاولوا السير على نهجه.

المبحث الثاني: التطور الدلالي وأثره على العربية

التطور هو التغير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها، ويطلق أيضًا على التغير التدريجي الذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو النظم أو القيم السائدة فيه، وفي استعمال اللغويون يضعون كلمة طرق أو أشكال إلى مصطلح "التطور الدلالي" فى دراسة علم الدلالة، يشرحون طرق التطور الدلالي من حيث التخصيص والتعميم وانتقال الألفاظ وغيرها، ودراسة علم الدلالة عن مفهوم طرق التطور الدلالي تساعدنا فى معرفة تغيرات المعنى حسب التطور الإجتماعى أو التطور الثقافي أو الحضاري أو التطور التكنولوجيا. (الخماش1428هـ ص 75-79)

ولقد كان نزول القرآن تتويجاً لما وصلت إليه العربية من نضج ونمو، فعكس في ألفاظه وتراكيبه كل الخصائص اللغوية الدقيقة التي وصلت إليها العربية عبر حياتها الطويلة، وأضاف إليها زاداً جديداً، ومن ثم عدَّ الباحثون القرآن والسنة أهم حدث في تاريخ اللغة العربية على الإطلاق. (بادشاه، ج3 ص119 العدد يناير-يونيو2017)

لقد أضاف الإسلام إلى اللغة العربية ثروة مصطلحات لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والدين والربا والوكالة والحجر والبيع والمزارعة والهبة والإجارة والزواج والطلاق وغيرها (ليوهان فك، ص1)، فقد نقلت هذه الألفاظ والمصطلحات من اللغة إلى الشرع، ولا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب وهو المجاز وفي هذا يقول ابن برهان: "فإن كلَّ من استحدث صناعة غريبة أو ابتدع علماً دعته الحاجة والضرورة إلى وضع أسامي لما استجده واستحدثه، وهذا شائع في أهل الصنائع والعلوم كأهل العَرُوض والنحو والفقه وتَسْميتهم المنع والنقض والكسر والقلب وغير ذلك، والرفع والخفض والطويل والمديد".(البغدادي، ج1 ص1051984م)

و لم يقف تأثير الإسلام على العربية على توليد ألفاظ جديدة أو التوسع في دلالاتها بل ظهر أيضاً في المسميات الجديدة للأشياء، فمن الألفاظ التي لم تكن معروفة في الجاهلية وعرفت في الإسلام: شهر

(المحرَّم) لم يكن معروفاً في الجاهلية، وإنما كان يقال له ولصَفر: الصَّفَرَيْن، وكان أول الصَّفَرَيْن من الأشهر الحُرُم فكانت العرب تارة تحرمه وتارة تقاتل فيه وتحرّم صفر الثاني مكانه، فكانت العرب تسمى صفر الأول وصفر الثاني، وربيع الأول وربيع الثاني، وجمادى الأول وجمادى الآخرة، فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلونه من النَّسيء سمَّاه النبي شهرَ الله المحرم. (السيوطي، ج1 ص294)

والمعلوم أن الثروة اللغوية التي تمتعت بها العربية لا قدرة لأحد أن يحصيها، ربما كان سبب ذلك عدم استقراء كلام العرب استقراءً كاملاً؛ لسعة اللغة العربية وضخامة عدد مفرداتها فلا يكاد يحيط بها إلا نبي، قال الشافعي رحمه الله: "ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه".(الشافعي1940 ص34)

المطلب الأول: التطور الدلالي في المفردات ونماذجه من السنة النبوية

حفلت السنة النبوية بكثير من المفردات والكلمات التي تمثل التطور الدلالي، ويمكن تقسيم هذه المفردات التي وردت في السنة النبوية إلى قسمين: قسم له أصل لكن لغة الحديث أخذته إلى تطور دلالي آخر، وقسم لم يكن موجوداً واستُخْدِم في أول الأمر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن نسمي هذه الكلمات جديدة الدلالة، وإليك أمثلة كل نوع.

أولاً: من أمثلة التطور الدلالي للكلمات في لغة الحديث النبوي:

الرُّوَيْبِضَةُ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،

وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ" قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"(ابن ماجة2009، ج5 ص162)، قال الزمخشري: "الرُّوَيْبِضَةُ تصغير الرَّابضة وهو العاجز الذى رَبَض عن معالى الأمور وجثم عن طلبها وزيادةُ التاءِ للمبالغة، والتّافه: الخسيس الحقير يقال: تَفِه فهو نَفِهٌ وتافه"(الزمخشري، ج2 ص27)، فالكلام الكثير في استعمال العرب للرابضة والذي يعرفه الصحابة هو راعي الربض، وهو التافه من الناس، ثم استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم للفُوَيْسِقِ يتكلم في أمر العامة. (ابن منظور، ج 8ص25)

التَّخَلُّلُ.

عن أبي سَوْرَةَ عن عمه أبي أيوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حَبَّذَا الْمُتَخَلِّلُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُتَخَلِّلُونَ؟ قَالَ: "التَّخَلُّلُ مِنَ الْوضُوءِ: تُخَلِّلُ بَيْنَ أَصَابِعِكَ وَأَظَافِرِكَ، وَالْتَخَلُّلُ مِنَ الطَّعَامِ: فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَكِ الَّذِي مَعَ الْعَبْدِ مِنْ أَنْ يَجِدَ مِنْ فِي أَحَدِكُمْ رِيحَ الطَّعَامِ"(الطبراني، 1983، ج4 ص177) ، قال ابن الأثير: "التَّخَلُّلُ من السنة هو استعمال الخلال لإخراج ما بين الأسنان من الطعام، والتَّخَلُّلُ والتخليل: تفريق شعر اللحية وأصابع اليدين والرجلين في الوضوء، وأصله من إدخال الشيء في خلال الشيء، وهو وسطه (ابن الأثير، 1979 ج2 ص73) ، وقد استعملت العرب التخلل للأسنان، ثم استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم في تخليل أصابع اليد والرجلين في الوضوء، وفي تخليل الأسنان من بقايا الطعام، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَخَلَّلُوا، فَإِنَّهُ نظافةٌ، وَالنَّظَافَةُ تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْجَنَّةِ".(الطبراني، ج7 ص215)

الْقُسَامَةُ.

عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِيَّاكُمْ وَالْقُسَامَةَ" قَالُوا: وَمَا الْقُسَامَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ يَكُونُ عَلَى الْفِئَامِ مِنَ النَّاسِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَظِّ هَذَا، وَمَنْ حَظِّ هَذَا"(الطبراني، ج8 ص163)، ويقول الزمخشري: القُسامة بالضم: ما يأخُذه القَسَّامُ من رأس المال عن أجْرَته لنفْسِه، كما يأخُذ السَّمَاسِرة رَسْماً لا أجْراً مَعْلوماً، كتَواضُعِهم أن يأخذوا من كل ألْفٍ شيئاً مُعَيَّناً، وذلك حرام، قال الخطَّابي: ليس في هذا تَحْرِيمٌ إذا أخَذَ القَسَّام أُجْرَته بإذن المقْسوم لهم، وإنما هو فيمَن وَلِيَ أمْرَ قَوم، فإذا قَسَم بين أصحابه شيئاً أمْسَك منه لنفْسه نَصِيباً يَسْتأثِرُ به عليهم. وقد جاء في رواية أخْرى (الرجُل يكون على الفِئام من الناس، فيأخذ من حَظّ هذا وحَظّ هذا)، وأمّا القِسامة بالكسر فهي صَنْعة القَسَّام. كالجُزَارة والجِزارة. (الزمخشري، ج3 ص193)

الْمُفْلِسَ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هَلْ تَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٌ قَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ، وَيَأْتِي قَدْ ظَلَمَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، فَيَقْعُدُ، فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ بِهِ فِي النَّارِ"(الطبراني، ج3 ص156)، وغير خفي فرق الدلالة بين أصل اللفظ وبين الدلالة الجديدة لها في الحديث الشريف.

اقْتَنَاهُ.

عن أبي عَنَبَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدِهِ خَيْرًا ابْتَلَاهُ فَإِذَا ابْتَلَاهُ اقْتَنَاهُ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا اقْتَنَاهُ؟ قَالَ: "لَا يَتْرُكُ لَهُ مَالًا وَلَا وَلَدًا"(ابن الأثير، ج4 ص192)، يقول الزمخشري: قَنَوْتُ الغَنَمَ وَغَيْرها قِنْوة وقُنوة، وقَنَيْت أيضاً قُنْية وقِنْية: إذا اقْتَنيتَها لنفسك لا للتِّجارة، ويقول ابن فارس: قنى الشيء واقتناه إذا كان معداً له لا للتجارة. (ابن فارس، ج2 ص157)

ثانياً: من أمثلة الكلمات جديدة الدلالة في لغة الحديث الشريف:

1 .الْأَعْزَبُ: عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا أَتَاهُ الفَيْءُ قَسَمَه فِي يَوْمِهِ فَأَعْطَى الآهِلَ حَظَّيْنِ وَأَعْطَى الْأَعْزَبَ حَظّاً(الطبراني، ج18 ص45)، قال ابن الأثير: "وهي لغة رديئة، والفصحى عَزَبٌ، يريد بالعطاء نصيبهم من الفيء. (ابن الأثير، ج1 ص48)

2 .الجَعْثَلُ: في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سِتَّةٌ لا يدخُلون الجَنَّةَ ، فذكر الجَوَّاظَ والجَعْثَلَ، فقِيل له: مَا الجَعْثَلُ قال: الفَظُّ الغَلِيظُ(الخطابي1982، ج2 ص450)، والجعثل هو العظيم البطن، وقال الخطابي: إنما هو العجثل، وهو العظيم البطن، وكذلك الجوهري. (ابن الأثير، ج1 ص265)

3 .الْعَيْفَةُ: عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَا تَحْرُمُ الْعَيْفَةُ"، قُلْنَا: وَمَا الْعَيْفَةُ؟ قَالَ: "الْمَرْأَةُ تَلِدُ، فَيَحْصِرُ اللَّبَنُ فِي ثَدْيِهَا، فَتُرْضِعُ جَارَتُهَا الْمَرَّةَ وَالْمَرَّتَيْنِ"(الطبراني، 1415، ج5 ص19) ، وعقَّب الصاغاني قائلاً: قال أبو عبيد: لا نعرف الْعَيْفَةُ في الرضاع، ولكن نراها العُفَّة، وهي بقية اللبن في الضرع بعد ما يمتك أكثر ما فيه، وقال الأزهري: أَنّها العَيْفَةُ لا العُفَّةُ، ومعناها أنّ جارَتَها تَرْضَعُها المَرَّةَ والمَرَّتَيْنِ لِيَنْفَتِحَ ما انْسَدَّ من مَخارج اللَّبنِ، سُمِّيَ

عَيْفَةً لِأَنَّها تَعافُهُ، أيْ تَقْذَرُه، وقال ابن السكيت: أعافَ القَوْمُ إعافَةً، إذا عافَتْ دَوابُّهُم الماءَ فَلَمْ تَشْرَبْهُ. (الصاغاني، 1977، ج4 ص536)

4 .العُسَاءُ: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَنْيحَةُ تَغْدُو بِعُسٍّ أَوْ تَرُوحُ بِعُسٍّ"(الحميدي 1996 ، ج2 ص241) ، قال الخطابي، قال الحُميدي: العِسَاءُ: العُسُّ، و لم أسْمَعْه إلاَّ في هذا الحديث، والحُمَيْدِي من أهل اللِّسان، وأما ابن المبارك قال: تغدو برفد وتروح برفد، والرِّفد القَدَح الكبير. (الخطابي، ج2 ص450)

5 .الْهُرَاءُ: عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ رَأْسِي قُطِعَ فَذَهَبَ يَتَرَدَّى, فَأَدْرَكْتُهُ فَأَعَدْتُهُ, قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ لِسَعْدِ بْنِ زَبْرَا, فَقَالَ: أَخْبَرَنِي سَلَمَةُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: "ذَاكَ الْهُرَاءُ شَيْطَانٌ وُكِّلَ بِالنُّفُوسِ, فَهُوَ يُخَيِّلُ إِلَيْهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِذَا عُرِجَ بِهَا, فَإِذَا انْتَهَتْ فَمَا رَأَتْ حَسَنًا فَهُوَ الرُّؤْيَا"(الحربي، 1405ج2 ص683)، قال ابن الأثير: لم يُسْمَع الهِرَاء أنَّه شَيْطان إلى فِي هذا الحديث. والهُرَاء في اللُّغة: السَّمْح الجَوَاد، والهَذَيَانُ. (ابن الأثير، ج5 ص598)

ومن خلال ما سبق يثبت أن الصحابة رضي الله عنهم –وهم من العرب بطبيعة الحال– لم يكونوا قادرين على فهم دلالة هذه الكلمات والمصطحات، على الرغم من عربيتهم الخالصة، ووضوح ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم وعذوبتها؛ والسبب في ذلك هي تلك الثروة التي أدخلها الحديث النبوي إلى اللغة العربية، فأصبحت اللغة المعجزة لأنها وعاء المعجزة الربانية للبشر القرآن والسنة .

المطلب الثاني: التطور الدلالي في الأساليب النبوية ونماذجه من السنة

لقد استخدم النبي الكريم أساليب جديدة لم تكن موجودة قبله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يسمى بالارتجال وهو القدرة على خلق الألفاظ والأساليب وإطلاق ما لم يسمع من قبل، بيد أنه لا يُقبل إلا

إن صدر من فصيح، ولذلك قال السيوطي في تحديد مفهوم السماع: "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين. (السيوطي، 1989، ص67)

ويقول ابن فارس: إنما تؤخذ اللغة سماعاً من العرب الثقات (ابن فارس1997 ، ص26) ، وفي المزهر: لسنا نسلم أن اللغة تثبت بالقياس، وإنما ثبتت نقلاً عن العرب. (السيوطي، المزهر ج1 ص62)

ولأن القدماء ذهبوا إلى أن اللغة العربية قد جرت في دماء العرب فقد أخذوها عن الأطفال والمجانين والنساء والأفراد من الأعراب، لكنهم عندما بدؤوا تدوين اللغة تنبهوا إلى وجود مستويات مختلفة في اللغة، فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة والردئ والمذموم والشاذ والحوشيّ والغرب والنادر. (عبد التواب، ص97)

وإذا كان علماء العربية قد أجازوا وقوع الارتجال في الأساليب العربية ممن تثبت فصاحته، فقبوله من سيد البشر أولى، فقد ساق العلماء ألفاظاً وتراكيباً كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من تكلم بها منها، و لم تسمع من عربي قبله صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ارتجال الأساليب في الحديث النبوي:

مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ.

عن أبي سلمة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، قَالَ: ثُمَّ ضَمَّ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ "وَأَيْنَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ، فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ"، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَإِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مَا سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي بِحَتْفِ أَنْفِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، "فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ".(النيسابوري،1990، ج2 ص97)

لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ.

عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ فَضْلٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَتْ عَصْمَاءُ بِنْتُ مَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكَانَ زَوْجُهَا يَزِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ حِصْنٍ الْخَطْمِيُّ، وَكَانَتْ تُحَرِّضُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَتُؤْذِيهِمْ، وَتَقُولُ الشِّعْرَ، فَجَعَلَ عُمَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ نَذْرًا أَنَّهُ لَئِنْ رَدَّ اللَّهُ رَسُولَهُ سَالِمًا مِنْ بَدْرٍ لَيَقْتُلَنَّهَا، قَالَ: فَعَدَا عَلَيْهَا عُمَيْرٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَتَلَهَا، ثُمَّ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى مَعَهُ الصُّبْحَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَصَفَّحُهُمْ إِذَا قَامَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ، فَقَالَ لِعُمَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ: "قَتَلْتَ عَصْمَاءَ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَلْ عَلَيَّ فِي قَتْلِهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ"، فَهِيَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (القضاعي 1986، ج2 ص48)، قال ابن الأثير: لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ" أي لا يلتقي فيها اثنان ضعيفان؛ لأن النطاح من شأن التيوس، والكباش لا العنوز. (ابن الأثير، ج5 ص74)

الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: "الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ"، ثُمَّ قَالَ: "هُزِمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، هُزِمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"(الطبراني، ج5 ص20)، وقال ابن دريد: قال أبو بكر: وهذه الكلمة لم تُسمع إلا منه صلى الله عليه وآله وسلّم (ابن دريد، ج12 ص89)، وأضاف الزبيدي: وهو من فَصِيحِ الكَلامِ (الزبيدي، ج15 ص54)، وقال ابن منظور: وهو من فصيح الكلام عبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق، وقال الأصمعي: الْوَطِيسُ حجارة مدورة فإذا حَمِيَتْ لم يمكن أحداً الوطءُ عليها، يُضرب مثلاً للأمر إذا اشتد: "قد حمي الوطيس".(ابن منظور، ج12 ص85)

لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ.

عَنْ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ"، قال أهل اللغة: يُضْرَبُ لمن أُصِيب ونُكِبَ مرّة بعد أُخْرى، والمقصود: لا يُصاب بأذًى من خطأ واحد مرّتين، ليكُن حذِرًا فطِنًا حتى لايُخدع مرتين. (الطبراني، ج7 ص83)

الْحَرْبُ خَدْعَةٌ.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَرْبَ خُدْعَةً عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(النيسابوري،1998 ج4 ص211)، يقال: الحرب خُدْعةٌ وخَدْعةٌ، ولغة النبي صلى الله عليه وسلم: "الحربُ خَدْعةٌ"(الصُحاري،1999ج3 ص4) وفيه تحضيض على الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وأن من لم يتيقظ له لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، واتفقوا على جواز الخداع مع الكفار إلا أن يكون فيه نقض عهدهم، وفيه إشارة إلى أن استعمال الرأي في الحرب آكد من الشجاعة ولذا اقتصر عليه، نحو: الحج عرفة. (الهندي، 1967، ج5 ص397)

·إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ"، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: "الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ"(القضاعي، ج2 ص96)، شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلأ يرى له غضارة وهو وبيء المرعى منتن الأصل؛ قال زفر بن الحرث (ابن منظور، ج6 ص58) :

وَقَدْ يَنْبُت المَرْعى عَلَى دِمَن الثَّرَى وتَبْقى حَزازاتُ النُّفوسِ كَمَا هيَا

قال ابنُ دريد: ومن الألفاظ التي لم تُسْمع من عربيّ قبله قوله: "لا يَنْتَطح فيها عَنْزَان"، وقوله : "الآن حَمي الوَطيس"، وقوله : "لا يُلْدَغُ المُؤْمنُ من جَحْرٍ مرتين"، وقوله: "الحربُ خَدْعَة"، وقوله: "إيّاكم وخَضْراء الدّمَن"، في ألفاظ كثيرة، وفي الصحاح قال أبو عبيد الصّيرُفي الحديث أنه شَقُّ الباب و لم يُسْمع هذا الحرف. (السيوطي، ج1 ص 241)

ونخلص من هذا كله إلى أنه قد شهد الصحابة والرواة الثقات والعرب الخُلَّص أن أمثال هذه الأساليب لم يسمعوها قبل هذا إلا من النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا دليل واضح وبرهان قاطع على فضل الأحاديث النبوية على اللغة العربية سواء أكان في الألفاظ أم في الأساليب، وإن مثل هذه الكلمات والأساليب وغيرها قد منحت اللغة العربية ثروة وقوة في أساليبها ومتنها.

وقد حفلت لغة الحديث بمادة لغوية غزيرة ما تزال حجة للفصاحة وأنموذجاً في البلاغة، وتعد المادة اللغوية التي حفل بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أساساً للتطور اللغوي وركناً مهمًا في العربية.

والألفاظ التي أثرت عنه صلى الله عليه وسلم و لم يسبقه غيره دليل على قدرته صلى الله عليه وسلم في الإبداع وارتجال الألفاظ كقدرته العجيبة على إحاطته باللغة، فكان يصرف اللغة ويشقق في أساليبها ومفرداتها(عبد التواب ص150)، وقد أشار إلى بعضها بعض علماء الغريب وأئمة اللغة بقولهم: و لم نسمع بها إلا في هذا الحديث، أو لا أعرفه، أو فإنَّا لا نرى هذا محفوظاً، وبعض الناس كان يشكك في الروايات، وقل منهم من أشار إلى قدرته صلى الله عليه وسلم على ارتجال الألفاظ كقدرته على إحاطته باللغة.

وقد حيرت بعض تلك الألفاظ علماء العربية وجهابذتها، فقال ابن الأثير: فكأن الله عز وجل قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، وجمع فيه من المعارف ما تفرق و لم يوجد في قاصي العرب ودانيه،

وكان أصحابه رضي الله عنهم ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم. (ابن الأثير، ج1 ص4)

كما يقول ابن الأثير: كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم، جعلها الله سبحانه ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها، ولقد صدق القائل: كم ترك الأول للآخر (ابن الأثير، ج1 ص11)، وارتجال الألفاظ حقيقة من حقائق اللغات جميعها، وهو وسيلة إثراء وإغناء مارسها بعض المؤهلين من أبناء لغتنا العربية، وعلى رأسهم نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم. (حمادي،1982، ص136)

المطلب الثالث: التطور البلاغي وأثره في التحليل الدلالي

قال الرافعي: "فليس إلا أن يكون ما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك قد كان توفيقًا وإلهامًا من الله، أو ما هذه سبيله، مما لا ننفذ في أسبابه، ولا نقضي فيه بالظن فقد علمه الله من أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم؛ حتى لا يعيا بقوم إن وردوا عليه، ولا يحصر إن سألوه، ولا يكون في كل قبيل إلا منهم؛ لتكون الحجة به أظهر، والبرهان على رسالته أوضح، وليعلم أن ذلك له خاصة من دون العرب، فهو يفي بهم في هذه الخصلة البينة، كما يفي بهم في خصال أخرى كثيرة"(الرافعي، ج2 ص188)، ومما يبرز دور الحديث في البلاغة العربية بوجه عام، استعمال الصور البلاغية بطريقة فريدة ومميزة كما يتضح في الأمثة الآتية:

التشبيه:

الصورة التشبيهية في الحديث النبوي تعد من الوسائل الفنية الراقية التي تقرب المعاني وتزيدها وضوحاً وتأكيداً، وقد استعملت في الحديث بشتى ألوانها وأشكالها سعياً لتوضيح معاني الدين وحرصاً على إفهامها للمخاطبين واستيعابها، فهي –أي الصورة التشبيهية– كما يقول الدكتور فايز الداية: "تضع بين

قارئها أو سامعها معطياها بلا مواربة، وتسعى إلى إغناء أبعادها بتفصيلاها الداخلية والألوان والمحسوسات الأخرى"(الداية،1990، ص143)، ومن ذلك:

-عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الإِيمانُ بِضْعٌ وَستُّون شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعبةٌ منَ الإِيمانِ)، قال العيني: "وفيه تشبيه الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب كما شبه في الحديث الإسلام بخباء ذات أعمدة وأطناب ومبناه على المجاز؛ وذلك لأن الإيمان في اللغة التصديق، وفي عرف الشرع تصديق القلب واللسان، وتمامه وكماله بالطاعات، فحينئذ الإخبار عن الإيمان بأنه بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون ونحو ذلك يكون من باب إطلاق الأصل على الفرع؛ وذلك لأن الإيمان هو الأصل والأعمال فروع منه"(العيني، ج1 ص127)، فقد شبه الإيمان ولوازمه من خصال وصفات بالشجرة الكبيرة التي تحمل شُعباً كثيرة، كل شعبة منها تتفرع إلى فروع، وهذا من التشبيه التمثيلي جاء على سبيل الاستعارة بالكناية، حيث حذف المشبه به وهو الشجرة وأتي بشيء من لوازمها وهي الشعب والفروع على سبيل المجاز.

-عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ، وَأَنْ يُحِبَّ الرَّجُلَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) قال العيني: "قوله كما يكره أن يقذف في النار تشبيه وليس باستعارة؛ لأن الطرفين مذكوران فالمشبه هو العود في الكفر، والمشبه به وهو القذف في النار، ووجه الشبه هو وجدان الألم وكراهة القلب إياه"(العيني، ج1 ص149)، ومن ذلك نفهم أن قوله (كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) تشبيه وليس استعارة؛ لأن طرفي التشبيه مذكوران، فالعود في النار هو المشبه، والقذف في النار المشبه به، ووجه الشبه الألم الحاصل وكراهة القلب له؛ فالكفر أمر ليس محسوساً أو مشاهداً عينياً حتى يحترز العبد منه ويحاذره، بخلاف الشيء المحسوس، لكن المؤمن يعرف حقيقة الكفر فيكره العود إليه ككراهته القذف في النار.

-عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟) ، قال العيني: "قوله (كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ...إلخ) فيه تشبيه متعدد وهو التشبيه من حيث الإسراع ومن حيث ضعف النبات ومن حيث الطراوة والحسن فمن كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان يخرج من ذلك الماء نضرًا حسنًا منبسطًا متبخترًا كخروج هذه الريحانة من جانب السيل صفراء متميلة وهذا يؤيد كون اللام في الحبة للجنس لأن بقلة الحمقاء ليست صفراء إلا أن يقصد به مجرد الحسن والطراوة وقد ذكرنا وجه كونها للعهد"(العيني، ج1 ص172)، ومن ثم فالتشبيه في (كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ) تشبيه متعدد المقصود منه تشبيه شيئين بشيئين إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر في التشبيه، فقد شبه خروج من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان من النار ونبات أجسادهم مثل الحبة التي هي بزر البقول والعشب النابتة في البراري وجوانب السيول بسرعة، فالمعنى الأول هو سرعة نبات أجسادهم مثل سرعة نبات هذه الحبة بجانب السيل، والوجه الجامع بين الحبتين هو عدم الانتفاع بمقومات الحياء والنماء، فالحية التي في القلب لم تنتفع بالإيمان الذي خالطها فلم تقدم أعمالاً صالحة ولا طاعات جليلة، وكذلك الحبة التي بجانب السيل لم تنتفع بمقومات الحياة من نهر جاري وسيول جارفة ومن ثم لم تنمو.

-عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ) فَقَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الدِّينُ)، قال العيني: "وفيه من الفصاحة استعمال جواب "بَيْنَا" بدون إذ، ومنها: استعمال جمع الكثرة في الثُّدِيّ لأجل المطابقة، وفيه من التشبيه البليغ، وهو أنه شبه الدين بالقميص، ووجه التشبيه الستر، وذلك أن القميص يستر عورة الإنسان ويحجبه من وقوع النظر عليها، فكذلك الدين يستره من النار ويحجبه عن كل مكروه"(العيني،

ج1 ص174)، وهذه الصورة يسميها علماء البلاغة بالتشبيه البليغ، لبلاغته في الحسن واللطف وموقعه في النفس، فقد شبه صلى الله عليه وسلم الدين بالقميص الملبوس، أو جسَّم الدين في شكل الثياب وهيئتها لجامع الستر بينهما، فكلما طال القميص دلَّ على كمال دين صاحبه، وعمر رضي الله عنه أكمل الناس ديناً، فهو يجر قميصه.

-عن أبي النعمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) قال العيني: " قوله (كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى) هذا تشبيه حال من يدخل في الشبهات بحال الراعي الذي يرعى حول المكان المحظور بحيث أنه لا يأمن الوقوع فيه ووجه الشبه حصول العقاب بعدم الاحتراز في ذلك فكما أن الراعي إذا جره رعيه حول الحمى إلى وقوعه في الحمى استحق العقاب بسبب ذلك فكذلك من أكثر من الشبهات وتعرض لمقدماتها وقع في الحرام فاستحق العقاب، فان قلت: ما يسمى هذا التشبيه؟ قلت: هذا تشبيه ملفوف؛ لأنه تشبيه بالمحسوس الذي لا يخفى حاله، شبه المكلف بالراعي، والنفس البهيمة بالأنعام والمشتبهات بما حول الحمى، والمحارم بالحمى، وتناول المشتبهات بالرتع حول الحمى فيكون تشبيها ملفوفا باعتبار طرفيه وتمثيلاً باعتبار وجهه".(العيني، ج1 ص302)

ومن كلامه نفهم أن التشبيه ملفوف باعتبار طرفيه المشبه والمشبه به، وتشبيه تمثيلي باعتبار وجه الشبه، فالنبي صلى الله عليه وسلم شبه محارم الله وحدوده بمحميات المرعى التي كانت تخصص للملوك ترعى فيها أغنامهم بحيث لا يقترب منا عوام الناس، وبقية الرعاة فينأون بماشيتهم عن تلك المراعي خشية الرعي فيها فيلحقهم العقاب، وهذا حال من يقع في الأمور المشتبهة ويقترب منها، فهو بذلك يقترب

من الوقوع في محارم الله، فشبه حالة الراعي الذي لم يجعل بينه وبين المراعي المحمية حاجزاً فترك ماشيته تدنو منها وترعى فيها، وذلك تقريباً للمعنى في الأذهان وتحذيراً من الوقوع في محارم الله ومقارفتها، وهذا الأسلوب له تأثير على نفس السامع بخلاف لو استعمل صلى الله عليه وسلم أسلوباً صريحاً ومباشراً في النهي عن ذلك؛ لأن لفظة الراعي في الحديث جسمت الخواطر القلبية في التردد بين الإقدام والإحجام في سلوك ما، وموقف ما من مواقف الحياة، كما أن لفظة (وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ) توحي بأن الخطأ يرمز إلى سفلية الشيطان والطبع الحيواني من الإنسان. (بودراع، 2009، ص151)

فكل هذه الأمثلة وغيرها تدل على أن لغة الحديث النبوي مترعة بأنواع التشبيه المختلفة، من تشبيه تمثيلي، وبليغ، ومتعدد، وملفوف، ومذكور الأداة وغير مذكور الأداه، وفي ذلك كله دليل على مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الصور الفنية في تقريب المعاني وإيضاح أمور الدين. (ثابت، ص10)

الاستعارة:

-عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ)، قال العيني: "فيه الاستعارة بالكناية؛ لأنه شبه الإسلام بمبنى له دعائم، فذكر المشبه وطوى ذكر المشبه به، وذكر ما هو من خواص المشبه به وهو البناء، ويسمى هذا استعارة ترشيحية، ويجوز أن يكون استعارة تمثيلية؛ بأن تمثل حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذي تدور عليه الأركان هو شهادة أن لا إله إلا الله وبقية شعب الإيمان كالأوتاد للخباء، ويجوز أن تكون الاستعارة تبعية بأن تقدر الاستعارة في (بُنِيَ) والقرينة الإسلام شبه ثبات الإسلام واستقامته على هذه الأركان ببناء الخباء على الأعمدة الخمسة ثم تسري الاستعارة من المصدر إلى الفعل، وقد علمت أن الاستعارة التبعية تقع أولاً في المصادر ومتعلقات معاني الحروف ثم تسري في الأفعال والصفات والحروف،

والأظهر أن تكون استعارة مكنية بأن تكون الاستعارة في الإسلام والقرينة بني على التخيل؛ بأن شبه الإسلام بالبيت ثم خيل كأنه بيت على المبالغة ثم أطلق الإسلام على ذلك المخيل ثم خيل له ما يلازم البيت المشبه به من البناء ثم أثبت له ما هو لازم البيت من البناء على الاستعارة التخييلية ثم نسب إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة".(العيني، ج1ص125)

-عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ، وَأَنْ يُحِبَّ الرَّجُلَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) قال العيني: "قوله: (حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) فيه استعارة بالكناية؛ وذلك لأن الحلاوة إنما تكون في المطعومات والإيمان ليس مطعوماً، فظهر أن هذا مجاز لأنه شبه الإيمان بنحو العسل ثم طوى ذكر المشبه به؛ لأن الاستعارة هي أن يذكر أحد طرفي التشبيه مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، فالمشبه إيمان والمشبه به عسل ونحوه، والجهة الجامعة –وهو وجه الشبه الذي بينهما– الالتذاذ وميل القلب إليه، فهذه هي الإستعارة بالكناية، ثم لما ذكر المشبه أضاف إليه ما هو من خواص المشبه به ولوازمه وهو الحلاوة على سبيل التخيل، وهي استعارة تخييلية وترشيح للاستعارة".(العيني، ج1ص149)

-عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)، قال العيني: "وفيه استعارة بالكناية بيانه أنَّ الوزن أنما يتصور في الأجسام دون المعاني، والإيمان معنى، ولكنه شبه الإيمان بالجسم فأُضيف إليه ما هو من لوازم الجسم وهو الوزن".(العيني، ج2 ص260)

وهنا نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت للمشبه وهو الإيمان أمر مختص بالمشبه به –الجسم– وهو الوزن، ذلك أن الوزن يتصور في الأجسام والإيمان من المعاني التي يستحيل أن توصف الوزن الذي هو لوازم الأجسام، وقد أفادت هذه الاستعارة المكنية بيان منزلة الإيمان وفضله.

وهذه النماذج وغيرها تكشف مدى جمالية الاستعارة في الحديث النبوي، فهي قد استعملت ووظفت لتوضيح وتقريب كثير من المعالم والأفكار من خلال إعمال عنصر المشابهة بين أمور الدين وأمور مادية محسوسة أخرى سعياً للتجسيم والتشخيص ولزيادة الإقناع والإفهام بأسلوب جمالي رائع. (ثابت، ص14)

الكناية:

إذا كانت الكناية أبلغ من الإفصاح في كلام العرب، فإنها في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم آكد وأبلغ وألزم؛ لأن لها ضرورة تقتضيها، وهي التعبير عن أمور الدين وأفكاره بطريقة جمالية مهذبة، حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه، ومن أمثلتها في الحديث الشريف:

- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: (بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ تَسْرِقُوا وَلاَ تَزْنُوا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِن ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَه اللهُ، فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ)، قال العيني: "ومنها ما قيل فما معنى إضافته إلى الأيدي والأرجل، وأجيب بأن معناه ولا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم، واليد والرجل كنايتان عن الذات لأن معظم الأفعال يقع بهما، وقد يعاقب الرجل بجناية قولية، فيقال له: هذا بما كسبت يداك، أو معناه ولا تغشوه من ضمائركم؛ لأن المفتري إذا أراد اختلاق قول فإنه

يقدره ويقرره أولاً في ضميره، ومنشأ ذلك ما بين الأيدي، والأرجل من الإنسان وهو القلب والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم والثاني عن إنشاء البهتان من دخيلة".(العيني، ج1 ص259)

وقد فُسر البهتان الذي نهوا عن افترائه وإتيانه بين أيديهن وأرجلهن على أنه ما يكون من إلحاق المرأة بزوجها ولدا من غيره؛ لأن الولد إذا ولدته أمه سقط بين يديها ورجليه، وقيل: إن المعنى أن تأخذ لقيطاً فتلحقه بزوجها وهذا الافتراء باليد، والافتراء بالرجل أن تلد من الزنا ثم تلحقه بزوجها (الحنبلي، 1996، ج1 ص74)، وإذا حمل البهتان على هذا المعنى فتكون فائدة الكناية في هذا الحديث المبالغة في ستر ما يقبح ذكره.

-عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطاً وسعد جالس...، ثم قال صلى الله عليه وسلم: (يَا سَعْدُ، إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ [فِي النَّارِ] عَلَى وَجْهِهِ)، قال العيني: "وفيه من باب الكناية، وهو في قوله خشية أن يكبه الله في النار؛ لأن الكب في النار لازم الكفر، فأطلق اللازم وأراد الملزوم، وهو كناية وليس بمجاز، فإن قلت: لم لا يكون مجازاً من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، إذ الملازمة في الكناية لا بد أن تكون مساوية؟ قلت: شرط المجاز امتناع معنى المجاز والحقيقة وههنا لا امتناع في اجتماع الكفر والكب فهو كناية لا غير".(العيني، ج1 ص194)

وخلاصة القول: إن كانت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولية فهي منتهى الفصاحة وروضاً نضيراً من نواضر البلاغة، غير أنها تحتاج إلى من يبيِّنها ويشرحها ويحللها ويقربها للأذهان، وهذا مُلْقَى على عاتق العلماء، لما فيها من المباحث البلاغية مثل: التشبيه والاستعارة والكناية، وتحتاج إلى التحليل والتفصيل .

المبحث الثالث: الاستشهاد بالسنة نظرياً وتطبيقياً

أخذت مسألة الاستشهاد بالحديث مساحة واسعة من البحث والدراسة بين العلماء قديماً وحديثاً وسيتناول البحث في هذا المبحث مسألة الاستشهاد بالحديث قديماً وحديثاً، من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: الاختلاف في الاسشتهاد بالحديث بين القدماء والمعاصرين

من المسائل المتنازع فيها بين النحاة مسألة الاستشهاد بالحديث النبوي والاحتجاج به في القضايا النحوية واللغوية، فذهبت طائفة من النحاة إلى الاحتجاج به مطلقاً، ومن هؤلاء ابن فارس وابن جني والحريري وابن سيده والسهيلي وابن مالك وابن هشام الأنصاري وغيرهم.

وذهبت طائفة أخرى إلى منع الاحتجاج بالحديث مطلقاً، ومن هؤلاء ابن الصائغ، وأبو حيان الأندلسي؛ محتجين في ذلك بإباحة المحدثين لرواية الحديث بالمعنى، وبالتالي وقع اللحن في كثير من الأحاديث؛ لأن أغلب الرواة أعاجم بعيدون عن اللغة العربية، ومعضدون مذهبهم بامتناع النحاة واللغويين الأوائل من الاحتجاج به، كأمثال أبو عمرو بن العلاء البصري وسيبويه والخليل والكسائي والفراء .

وذهبت طائفة ثالثة إلى مذهب وسط بين المذهبين السابقين، وهو جواز الاحتجاج بالحديث النبوي بشرط أن يكون موافقاً للفظ المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويتقدم هذا الاتجاه الإمام الشاطبي والإمام السيوطي.

والناظر لأقوال المذهب الثاني المانعين من الاستشهاد بالحديث كون أغلب الرواة أعاجم، يجعلنا نتساءل هل كان المحدثون بعيديون عن اللغة العربية نحواً وصرفاً وشعراً وبلاغةً وفصاحةً، وبالتالي لم يكن لهم ذوق أدبي ولا حس بلاغي، ولا اطلاع بالنحو وعلوم اللغة، حتى أوقعهم هذا البعد فيما أوقعهم فيهم مما نقرأه عنهم في هذه المسألة، والجواب طبعاً بالنفي.

إن الواقع يكذب ويدحض كل الدعاوي القائلة بأن المحدثين لم يكن لهم كبير إلمام باللغة ولا كثير اهتمام بجميع علومها، فعند الوقوف على سير كثير من المحدثين في كتب التراجم والطبقات يتضح لنا

أن رواة الحديث الأوئل، كانوا أئمة في اللغة وشيوخاً في العربية وفيهم الخطباء والفصحاء والشعراء (ثابت، ص3) ومن أئمة اللغة والحديث :

حماد بن سلمة: حماد بن سلمة بن دينار مولى ربيعة بن مالك، إمام الحديث، وشيخ أهل البصرة في العربية، ذكره السيرافي في نحاة البصريين، سئل يونس: إيّما أسنّ أنت أو حمّاد؟ فقال: حماد، وتعلمت العربية، وقال الجرمي: ما رأيت أفصح منه، وكان يقول: من لحن في حديثي فقد كذب عليّ، وكان سيبويه يستمل عليه يوماً، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلَّا وقد أَخَذْتُ عَلَيْهِ لَيْسَ أَبَا الدَرْدَاءِ) فقال سيبويه: ليس أبو الدراء، قال حماد: لحنت يا سيبويه، فقال: لا جرم لأطلبَّن عمَّا لا تلحنني فيه أبداً، ثم لزم الخليل... قال الذهبي: كان إماماً رأساً في العربية فصيحاً بليغاً، كبير القدر صاحب سنة شديداً على المبتدعة، زاهداً حجة، روى له مسلم والأربعة. (السيوطي، ج2 ص5)

سليمان بن معبد أبو داود السنجي المروزي: قال الخطيب: "سمع النضر بن شميل والأصمعي وجماعة، ورحل في العلم إلى العراق والحجاز ومصر واليمن، وقدم بغداد، وروى عنه مسلم بن الحجاج وغيره، وكان ثقة، مات في ذي الحجة سنة سبع وخمسين ومائتين، وقال الصفدي: كان محدثاً حافظاً فصيحاً نحوياً". (السيوطي، ج1 ص603)

ونقل عنه الحافظ بن أبي حاتم شعراً رثى به الحافظ بن يحيى بن معين، يقول فيه (الرازي، 1952، ج1 ص317):

أمن حـــدثان الـــدهر أنت مروع وعينك من فرط الصبابة تدمع

مرى دمعك المكنون ما ضمن الحشا من الوجد تبكي تارة وتوجع

لئن هملت عيناك من لوعة الأسى لمثل الذي أذرى دموعك يفجع

- الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب، من ولد زيد بن عبد الله أخي عمر رضي الله عنه، قال الإمام الثعالبي: كان يُشَبَّه في زمانه بأبي عبيد القاسم بن سلام، وقال السّمعاني: كان حجة صدوقاً له من التصانيف: غريب الحديث، وشرح البخاري، وشرح أبي داود، ولد سنة عشرة وثلاثمائة، وتوفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة. (السيوطي،ج1 ص411)

- ابن خالويه: الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان أبو عبد الله الهمداني النحوي، إمام اللغة والعربية، طلب العلم في بغداد سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وقرأ القرآن على ابن مجاهد، والنحو والأدب على ابن دريد، ونطفويه، وأبي بكر الأنباري، وأبي عمر الزاهد، وسمع الحديث من محمد بن مخلد العطار وغيره، وأملى الحديث بجامع المدينة. (السيوطي،ج1 ص399)

- العيني: محمود بن أحمد بن موسى أبو الثناء بن الشهاب الحلبي المعروف بالعيني، قال فيه السخاوي: وكان إماماً عالماً علامة عارفاً بالصرف والعربية وغيرها، حافظاً للغة كثير الاستعمال لها مشاركاً في الفنون ذا نظم، وذا نثر، مقامه أجل منها، لا يمل من المطالعة والكتابة، كتب بخطه جملاً وصنف الكثير، بحيث لا أعلم بعد شيخنا أكثر تصانيف منه. (السخاوي، ج5 ص131)

وخلاصة القول فإن علماء الحديث ليسوا بعيدين عن العربية ولا مفارقيها وإنما هم علماء أجلاء فيها اهتموا باللغة قبل الحديث، لأنها وعاؤه وحافظته.

المطلب الثاني: الاقتباس من الحديث النبوي

إن فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم جذبت انتباه الشعراء والبلغاء، فاقتفوا أثرها واقتبسوا منها؛ ذلك لأنهم عرفوا قدرها وفصاحتها، فكما اقتبس الشعراء من القرآن الكريم؛ فقد تواردوا على الحديث النبوي

يقتبسون من بلاغته الرائعة، فقد وهب الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، ومنحه فصاحة المنطق، حيث قال: (أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ). (العاني، 1996، ص194)

أنواع اقتباس الشعراء من الحديث: تنوع اقتباس الشعراء من الحديث باللفظ والمعنى، كما في الصور الآتية :

أولاً: قد يقتبس الشعراء نص الحديث، ولكنهم يغيرون في بعض ألفاظه أو تراكيبه، محافظة على وزن الشعر أو قافيته، من ذلك قول الشاعر التميمي في حروب الردة يمدح قيس بن عاصم التميمي:

وَقَـــالَ النَّـــبِيُّ إِذْ أَتَى هُوَ اليَوْمَ سَيِّدُ أَهْلِ الوَبَرِ

اقتبس من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الوَبَرِ) (العاني، ص194)

ثانياً: أن يكون الاقتباس بأن يختصر الشاعر كلمات الحديث بألفاظ قليلة، تناسب طبيعة الشعر ولا تخل بالمعنى، أو يرمز إلى الحديث بإشارة سريعة، من ذلك قول بجيد بن عمران الخزاعي يفخر بقومه:

وَقَدْ أَنْشَأَ اللهُ السَّحَابَ بِنَصْرِنَا رُكَامَ سَحَابِ الْهَيْدَبِ الْمُتَرَاكِبِ

وهو يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين استنصره عمرو بن سالم الخزاعي: (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِم!)، ثم عرض لرسول الله سحاب من السماء فقال: (إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ).

الخاتمة

كشف البحث عن تأكيد العلاقة بين اللغة العربية والحديث النبوي الشريف؛ لأن كلامه صلى الله عليه وسلم كان فصلاً ظاهرًا، ومنطقه بيِّنًا واضحًا، ما إن يقع على أذن مَنْ يجلس إليه شذرات منه، حتى

يحفظه بمجرد سماعه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يوجز المعاني الكثيرة في درر قليلة، ويختصر الكلام اختصاراً، في غير إخلال بالمعنى المراد، ولا تقصير في المقصود من وراء الكلام، ومن أهم سمات كلامه صلى الله عليه وسلم الفصاحة والطلاقة، المنطق العذب السلس، لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً.

من الحقائق التي لا يتطرَّق إليها أدنى شك أثر الحديث في علوم العربية ، ذلك أنَّ الناس لما ابتعدوا عن العصر الذي نزل فيه القرآن وقيل فيه الحديث، كانت الحاجة تبدو مُلِحَّة لشرح كلٍّ منهما، ومن هنا بدأ العمل في ميدان العربية ومعاجمها، ونحن نقرأُ في مقدمات معاجم العربيَّة الكبرى فنرى كلامًا لمؤلِّفيها لا نشتمُّ منه إلا رائحةَ الغَيْرة على القُرآن الكريم، ورغبة في حِفْظِه وتفسير معانيه وتبْيين دقائقه، وكذلك السنة نفسها.

كما أن علماء الحديث ليسوا بعيدين عن العربية ولا مفارقيها وإنما هم علماء أجلاء فيها اهتموا باللغة قبل الحديث، لأنها وعاؤه وحافظته.

وصل البحث إلى دليل عقلي يثبت الفضل للحديث النبوي على العربية، وهو أن العرب كانت أمة البلاغة وأئمة الفصاحة، فكان لابد أن يكون الرسول الذي يرسل إليهم ليبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أروع من منطقهم، وخطابه أجل أثراً وأعظم قدراً من خطابهم؛ من هنا كان تأييد الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن ومعجزة البيان، فأوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، فكان فصيح المنطق، سمح البيان، سلس الأسلوب، قوي العبارة، رائع الحكمة، موفق اللفظ، مشرق المعنى قد أثرت لغته في اللغة والأدب تأثيراً بالغاً، ومن أهم آثار الحديث الشريف في اللغة العربية أنه:

- عاون القرآن الكريم على انتشار اللغة العربية في الأمصار.

- فصل ما أجمله القرآن الكريم من أصول الدين وأحكامه، فاستعمل ألفاظاً جديدة لم تكن مستعملة.
- أدخل الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً من التراكيب البيانية في اللغة العربية، وزاد فيها ألفاظاً جديدة.
- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة والقضاء على الحوشي والغريب والتعقيد في البيان.
- تأثر الخطباء والكتاب والشعراء بالحديث النبوي، واقتبسوا منه، وحاولوا السير على نهجه.

شهد الصحابة والرواة الثقات والعرب الخُلَّص أن الكلمات والأساليب الجديدة التي ذكرها لهم النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمعوها قبل هذا إلا من النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا دليل واضح وبرهان قاطع على فضل الأحاديث النبوية على اللغة العربية سواء أكان في الألفاظ أم في الأساليب، وإن مثل هذه الكلمات والأساليب وغيرها قد منحت اللغة العربية ثروة وقوة في أساليبها ومتنها.

-حفلت لغة الحديث بمادة لغوية غزيرة ما تزال حجة للفصاحة وأنموذجاً في البلاغة، وتعد المادة اللغوية التي حفل بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أساساً للتطور اللغوي وركناً مهمًا في العربية.

-إنّ أحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام قد حوت صنوف البلاغة وألون الفصاحة، وعبرت أدق تعبير عن سمو النفس التي خرجت منها، وبينت المنبع العذب الذي نهلت منه.

يبرز دور الحديث في البلاغة العربية بوجه عام في استعمال الصور البلاغية بطريقة فريدة ومميزة سحرت العقول والألباب مما جعل الشعراء والأدباء يقتبسون منه وينهلون من ينبوعه الصافي العذب.

يقترح البحث ضرورة تضافر الجهود في تأليف معجم لغوي شامل للسنة النبوية؛ يضم الكلمات والتراكيب والأساليب اللغوية التي أثرت في العربية، ويدرسها من أول نشأتها مروراً بمراحل تطورها المختلفة.

كما يقترح البحث ضرورة زيادة الدراسات حول علاقة السنة بالعلوم المختلفة لتحقيق الإعجاز بأنواعه المختلفة في هذه السنة النبوية الخالدة.

المراجع والمصادر

الأنباري، عبد الرحمن بن محمد، *نزهة الألباء في طبقات الأدباء*، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار الثالثة 1985م.

أبو الطيب، عبد الواحد بن علي، *مراتب النحويين*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية بيروت 2009م.

ابن الأثير، المبارك بن محمد، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، ط. المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ، 1979م.

البخاري، محمد بن إسماعيل، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه*، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط. دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1422هـ.

ابن منظور، جمال الدين، *لسان العرب*، ط. بيروت لبنان.

ابن جني، أبو الفتحقيق عثمان، *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م.

ابن قيم الجَوزيَة، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، دار الريان للتراث، القاهرة، ط. الأولى 1407هـ، 1987م.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم المعارف، *تحقيق ثروت عكاشة*، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1992م.

ابن منظور، محمد بن مكرم، *لسان العرب*، ط. دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة 1414هـ.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م.

ابن فارس، *الصاحبي في فقه اللغة العربية*، تحقيق محمد على بيضون، ط. دار الكتب 1997م.

أولمان، ستيفين، *دور الكلمة في اللغة* ترجمة د. كمال بشر، ط. دار الطباعة القومية 1962م.

بشر، د. كمال *علم الأصوات* .. ط دار غريب . القاهرة 2000 م

البغدادي، أحمد بن على البرهان، *الوصول إلى الأصول*، تحقيق الدكتور عبد الحميد، ط. مكتبة المعارف، 1984م.

بادشاه، دكتور حافظ محمد، ودكتور كفايت الله الهمداني، *تأثر اللغة العربية بالحديث النبوي*، ط. مجلة الأزهار، العدد يناير–يونيو2017م.

بودراع، عبد الرحمن، *الإيجاز وبلاغة الإشارة البيان النبوي*، ط. مطبعة الخليج العربي، المغرب 2009م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، *دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط. دار الكتب العلمية بيروت، دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ،

الترمذي، *الجامع الصحيح سنن الترمذي*، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر *دلائل الإعجاز*، تحقيق محمود محمد شاكر، ط5, القاهرة مصر, مكتبة الخانجي، 004 م.

الحمزاوى، محمد أبو العلا أبو العلا، *خصائص البلاغية للبيان النبوي*، طبعة مكتبة الرشد 2007م.

الحنبلي، أحمد بن رجب، *فتحقيق الباري شرح صحيح البخاري*، تحقيق محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون، ط. مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، 1417 هـ، 1996م.

حمادي، دكتور محمد ضاري، *الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية*، الطبعة الأولى1402هـ 1982م.

الحميدي عبد الله بن الزبير، *مسند الحميدي*، تحقيق حسن سليم أسد، ط. دار السقا دمشق، الأولى 1996م.

الحربي، إبراهيم بن اسحاق، *تحقيق د. سليمان إبراهيم محمد العايد*، ط. جامعة أم القرى، الأولى، 1405هـ.

الحاحظ، أبو عثمان، *البيان والتبيين*، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الخانجي السابعة، 1418هـ، 1998م.

الخطابي، حمد بن محمد، *غريب الحديث*، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر دمشق، 1402هـ 1982م.

الداية، الدكتور فايز، *جماليات الأسلوب*، الصورة الفنية في الأدب العربي، ط. دار الفكر بيروت، الثانية 1990م.

الرازي، ابن أبي حاتم، *الجرح والتعديل*، ط. طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1271هـ 1952م.

الرافعي، مصطفى صادق، *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ط دار الكتاب العربي القاهرة.

الرافعي، مصطفى صادق *تاريخ آداب العرب*، ط. مكتبة الإيمان القاهرة 1997م.

الزبيدي، محمّد بن محمّد، *تاج العروس*، ط. بيروت لبنان.

الزمخشري، محمود بن عمر، *الفائق في غريب الحديث*، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط. دار المعرفة، لبنان الطبعة الثانية.

السباعي، د. مصطفي، *السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي*، ط. دار الوراق، المكتب الإسلامي 2000م.

السَّخاوي، عبد الرحمن، *المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة*، ط. الكتاب العربي.

السخاوي، شمس الدين محمد، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، ط. بيروت منشورات دار مكتبة الحياة.

الشنقيطي، محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله، *كوثَر المَعاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبايا صَحِيحْ البُخَاري*، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى، 1415 هـ، 1995م.

الشافعي، *الرسالة*، تحقيق أحمد شاكر، ط. مكتبه الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، 1358هـ،1940م.

سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد، *تحقيق شعيب الأرنؤوط*، دار الرسالة العالمية، الأولى، 2009م.

الشيباني، أحمد بن عمرو بن الضحاك، *الآحاد والمثاني*، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط. دار الراية الرياض، الطبعة الأولى، 1411هـ 1991م.

السيوطي، جلال الدين، *الاقتراح*، تحقيق د. محمود فجال، ط. دار القلم، دمشق الطبعة الأولى، 1989م.

سَلَمة بن مُسْلِم، *الإبانة في اللغة العربية*، تحقيق دكتور عبد الكريم خليفة وآخرون، ط. وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط سلطنة عمان، الطبعة الأولى1420هـ 1999م.

سيبويه، أبو بشر عمرو، *الكتاب*، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط الرابعة 1425هـ2004م.

سالم سليمان الخماش، *المعجم وعلم الدلالة (للطلاب المنتظمين والمنتبين، موقع لسان العرب* ، 1428هـ)

السيوطي، جلال الدين، *المزهر في علوم اللغة*، تحقيق محمد أحمد جاد المولي وآخرون، ط. دار التراث الطبعة الثالثة.

السيوطي، جلال الدين، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية بيروت.

الصاغاني، الحسن بن محمد، *التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية*، تحقيق إبراهيم إسماعيل الأبياري، ط. مطبعة دار الكتب، القاهرة طبعة سنة 1977م.

الصالح، د. صبحي، *علوم الحديث*، ط. دار العلم للملايين 1984م.

ضيف، د.شوقي *سلسلة تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي*، ط. دار المعارف، الطبعة العشرون، 2002م.

الطبراني، سليمان بن أحمد، *المعجم الكبير*، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مكتبة العلوم والحكم، الموصل العراق، الطبعة الثانية ، 1404هـ 1983م.

الطبراني، سليمان بن أحمد، *المعجم الأوسط*، تحقيق طارق بن عوض الله, عبد المحسن الحسيني، ط. دار الحرمين.

الطبراني، سليمان بن أحمد، *تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي*، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

الطبراني، سليمان بن أحمد، *المعجم الأوسط*، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين القاهرة ، 1415هـ.

عبد التواب، دكتور رمضان، *فصول في فقه العربية*، ط. مكتبة الخانجي القاهرة مصر.

عبد الرحمن، *الظواهر البلاغية في الأحاديث النبوية دراسة تطبيقية في كتاب عمدة القاريء للعيني نموذجاً*، بحث منشور ط. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، القسطنطينية

العقاد، عباس محمود، *عبقرية محمد*، ط. المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت لبنان.

عمر، د أحمد مختار، *معجم اللغة العربية المعاصرة*، ط. عالم الكتب الطبعة الأولى، 1429 هـ 2008م.

العاني، سامي مكي العاني، *الإسلام والشعر*، ط. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت1996م.

العيني، بدر الدين الحنفي، *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*، ط. دار الفكر بيروت.

الفيومي، أحمد بن محمد المقري، *المصباح المنير*، ط. المكتبة العلمية بيروت لبنان.

القضاعي، محمد بن سلامة، *مسند الشهاب*، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، 1407هـ 1986م.

القضاعي، محمد بن سلامة، *مسند الشهاب*، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، 1407هـ 1986م.

ليوهان فك، *العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب*، ترجمة رمضان عبد التواب، ط. دار المعرفة لبنان.

المناوي، عبد الرؤف المناوي، *فيض القدير*، ط. المكتبة التجارية الكبري، مصر.

المبارك، د. مازن، *النحو العربي*، ط. المكتبة الحديثة دمشق سوريا.

النمري، يوسف بن عبد الله، *جامع بيان العلم وفضله*، تحقيق أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، ط. مؤسسة الريان دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1424-2003 هـ

المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، *مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري*، ط. المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، السادسة، 1407 هـ 1987م.

النيسابوري، محمد بن عبد الله، *المستدرك على الصحيحين*، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ 1990م.

النيسابوري، ابن إسحاق، *مستخرج أبي عوانة*، أيمن بن عارف، ط. دار المعرفة، الأولى، 1419هـ 1998م.

الهرفى، د.محمد بن على، *مدائح الرسول ومراثيه في عصره*, الطبعة الثانية دار المعالم الثقافية السعودية, 2005م.

الهندي، محمد طاهر بن علي، *مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار*، ط. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الطبعة الثالثة، 1387هـ 1967.